لستُ أدري إنْ كنتُ امرأةً تَكتب أو رجلاً يَمحو

عالية ممدوح

- ١ -

من الجائز أن يكون العنوان المختار لهذا الملفّ، أي «الاختلاف الجنسيّ،» هو بمعنى من المعاني قَدَرَنا الوجوديّ، وقد تسبَّب الإطاحةُ أو التضحيةُ به اضطراباتٍ شتّى. لكنّ الإحاطة به، حتى وإنْ لم نبلغْها في أيّ يوم من الأيّام، هي أحد نشاطاتِ وحيويةِ الفكر والعلم والإبداع البشريّ في أركان الدنيا.

شخصيّاً، لا أعرف حدود الاختلاف الجنسيّ. فالحميميّ هو الجنس، أفَيَكون الموضوعيُّ إذنْ هو الاختلاف؟ وهل معنى هذا أنّنا لن نَبْلغ الاختلافَ، وأنّ علينا أن نَحْذف واحدًا ونستبعدَ الآخرَ، فلا يعود العنوانُ إلاّ ذريعةً ما لفكّ البَكرة ونَشْرِ الخيوط في مهبّ ريح الكتابة؟ إنّني لا أفضل الذهاب (معهم) في هذا الشأن. ذلك لأنّني أشعر أنّني على الأقلّ في منتصف الطريق: ما بين المرأة والرجل، ما بين النبات الكَتُوم والحيوانِ الغريزيّ. ليست المرأة مَرْتبة حاسمة تحت الشمس. وكذلك الرجل؛ فهو ـ يا عيني ـ يتخبّط، ولاسيّما إذا كان ضعيفَ البنية، ركبتاه لا تقويان على حمله. وأما ذلك الجزءُ الكافرُ من بدنه فهو لم يعد واثقًا من تحديد نوع المسيرة.

- ٢ -

اهتزّ دورُ الرجل/البطل. لم يتمّ التراجع عنه، وإنّما أُخرج من مؤسسات عديدة وخطيرة، لعلّ أهمَّها: العائلة.

حَدَث الاهتزازُ في نواة ذلك الكائن في أحد نهارات ذلك الصيف الحزيرانيّ الكالح، في واقعة الهزيمة. دُمِّر بقدرٍ كبيرٍ من العنف والتدليس، ولم يعد بمقدورنا القولُ إنّ كلَّ شيءٍ جرى من وراء ظهرنا. وأما ظهره فلم يعد يحتمل ـ يحتملنا ويحتمله. فالقضيب، ذاك، لم يعد إلاّ سقفًا واطئًا لحلول الذعر، بعد أن كان حارسًا للوصول إلى عربة اللذة. فليس غريبًا أن تسجِّل دوائرُ الصحة القومية في مصر، على سبيل المثال، درجةَ العجز الجنسيّ وتقدِّرها رسميّاً بثمانية ملايين عاجز. فهل كان هذا الرقمُ يتطابق مع الوقائع التي رَصَدَتْ تلك الظلالَ الداكنةَ للعجز العربيّ الحاليّ: فاكتملت الدائرةُ مع تعاريف الاحتراق داخل الدبابة، وضربِ العراق، والقتلِ خارج الثكنة وداخلها، كما في فلسطين؟

- ٣ -

لستُ منظِّرةً في هذا الميدان ولا في غيره، ولستُ أدري إنْ كنتُ امرأةً تَكْتب أو رجلاً يمحو. فحتى اللحظة، لم أَظفرْ بشيء خصوصيّ، غيرِ متوقَّع، من تلك المسرّة (أيْ من كوني امرأة)، ولم يلاحقْني النَّدمُ قطّ لكي ألحقَ المجدَ (أي أن أغدو رجلاً). ولعلَّ أكثر ما يغيظني هو هويّةُ الأحوال الشخصية، وتلك الخاناتُ التي على أصحاب الشأن أن يملأوها: أنثى، ذكر، إلخ. كأنّنا أمام أهداف حربية. معظم هذه الكليشيهات صَدَقتْ في أحد الأعوام وسوف تبقى لا أدري إلى متى، لكنْ لم تعد لدى أحدٍ قابليةُ التنبؤ البتةَ بكينونة ذلك الكائن، حتى إذا كانت الأعضاء التناسلية هي العلامةَ الفارقةَ والوحيدةَ التي تَمْنح رياءَ أو اصطفاءَ شرف هذا الجنس أو ذاك. وإلاّ فما معنى تلك التظاهرات الصاعقة في يوم التاسع والعشرين من شهر حزيران (يونيو) من كلّ عام، على امتداد الكرة الأرضية، والتي بلغتْ بحسب الإحصاءات الرسميّة في فرنسا أكثرَ من ثلاثة أرباع المليون؟

سنقول: شابات وشباب يزمجرون ويَشْدُون بكلّ ما يَخْطر على البال من أغانٍ، يَضْربون الدفوفَ والطبولَ، ويَعْرضون أنفسَهم في أزياء غايةٍ في الطرافة والوقاحة والفجاجة. أَقْفلوا الشوارعَ والجادّات الأساسيةَ في باريس. لا يَرْفعون لافتات، بل أجسادُهم هي اللافتة: أجسادٌ فجّة، غضّة، هازئة، ضاحكة، فاسقة. أهدافُهم الخاصة، وبالإجمال، هي إخراجُهم من بقعة الهامشية والتهميش، والكفُّ عن وصمهم بالنعت الأخلاقيّ: «الشاذّين.» كانوا أمامنا، يُشْعلون النارَ ويجنِّدون اللغةَ لإعدام ما يسمَّى بـ «الاختلاف الجنسيّ.» أَفردتْ لهم جميعُ وسائل الإعلام مساحاتٍ وافيةً، ربّما عن قصدية وبجديةِ مَنْ له الوقتُ الكافي لكي يعيش تلك الحياةَ برمّتها ولو ليوم واحد من السنة. رئيس بلدية باريس أحدُ رموزهم: كان هو نفسُه يَضْبط من وراء الكواليس هذه الحشودَ بدون استفزاز، لكنْ بعناد.

كنّا مجموعةً من الأصدقاء والصديقات نقف في أحد الشوارع. التظاهرة تمرّ من أمامنا وأفرادُها يلوّحون لنا بزهوِ مَنْ بَلَغَ هدفَه، وبنشوةِ التعبير والوفاء لقوّةٍ ما يشتركون به. كانوا يَضْحكون من وقفَتنا تلك، ونحن نشدّد الرقابةَ على مهارات حشمتنا: العرقُ يبلّلنا وتَفُوح منا رائحةُ الأخلاق الحميدة.

ـ ٤ ـ

* «فكرتُ يومًا، لو أنّني رجلٌ سأكونه تمامًا. لا أُبالغ في فحولتي، ولا أرتاب في رغباتي... هل أنا رجل حقّاً؟ أم أنّ لديّ ميولاً مثلية؟...»

* «كنّا جميعًا نعيش في ضنك جنسيّ وعاطفيّ وروحيّ. نعم، الجميعُ في حالة احتقان... نقرأ الصفحة الأولى: إنّهم يفضّلون إشهارَ أعضائهم... يبدو لي أنّهم جاهزون، وبطريقة لا نظير لها للمضاجعة. وهذا الشأن لا علاقة له بالأنوثة والذكورة... كلا، هذا هو الظاهر، أما الباطن فإنّ مجرّد القابلية للانتعاظ، وبالتالي للإخصاب واللّذة، كان يَدْفع بالرجل، وفي منتهى المكر والعنف، إلى الحرية، وبالتالي إلى نشدان السلطة...»

* «إنّ الذَكَر العربيّ محاطٌ بهالات: هالة الفحل الأكثر ممّا ينبغي، وتلك التي أسمّيها: بالكاد يكون رجلاً. ويبدو لي أنّ هناك فريقًا ثالثًا هم الضالّون إلى الأبد: فلا هم من الرجال ولا من النساء...»

* «هل تفضّلين جَلْبَ الأسماء...؟ حسنًا... ألم تلاحظي، كان البعضُ أكثرَ عدوانيةً واستفزازًا وتطيُّرًا وقسوةً من الآخرين؟... كانت نظراتُهم تشي بحالتين لا ثالثة لهما: العار والفحش معًا... كانوا غلاةً في كل شيء، في السفاهة والحياء المخجل، وفي إثبات الهوية بالانتساب إلى هذا الحزب أو ذاك. لكنْ كان هناك شيء آخر... حالة الالتباس الملغز، بين شغفهم الذي يدير رؤوسَهم بالآنسات والفتيات والسيدات، وبين ذلك الاحتفال المُهْلك والمدمِّر إذا ضغطوا بالمرفق أو الساعد لحمَ صبيّ عابر، أو بنْيةَ غلامٍ طائش... أظنّ أنّهم ـ كانوا ـ يتآمرون على مواهبهم وصبواتهم الجنسية.»

ـ ٥ ـ

تعمّدتُ اختيارَ فقراتٍ طويلةٍ نوعًا ما من روايتي **الولع** (بيروت: دار الآداب، ١٩٩٥، ص ١٣٢ ــ ١٣٥)، وهي أحبُّ الروايات إلى نفسي وأشدُّها فشلاً في المبيعات. وأنا أحاول عبر تلك السطور أن أهدي عذابَ تلك الكائنات من الجنسَيْن، عذابَ انتظار التعرُّف على مفرداتِ التباسِ ميولهم وطباعهم الجنسية. حاولتُ متابعةَ بعض الأشخاص الذين أعرفهم قبل أن يدمِّروا ذواتهم، وبعد أن دَمَّروا غيرَهم.

إنّ الاستنكاف في مجتمعنا العربيّ من إعلان الميول الطبيعية نفسِها (فكيف بالمثليّة؟!) قد تصل حدودَ التنكيل بالطرفَيْن، نبذًا أو ازدراءً أو قتلاً. هذه المراوغة الجنسية، والمعنى التحقيريّ، والتهديد السريّ والعلنيّ الموجود في أروقة المؤسسات الأساسية في المجتمع (العائلة، الدين، الحزب، الشارع،...) هي أحد الأسباب التي قادت أحد شخصيات الرواية إلى الانشطار بين حياتين (التشنُّج، البهلوانية، الإسفاف) وما سوف يصبحه في مراحل متقدِّمة من حياته وهو ينتقل من رتبة الداعية الأخلاقيّ إلى مركز الطاغية المستبدّ. إنّ الهوان الذي يلاقيه المفعولُ به لا يقلّ ابتذالاً وجريمةً من الفاعل ـ أيْ من الحاكم الفاشيّ وهو يزهو بنشيد العبقرية، وبلاغةِ الصمود، والتنظيرِ للقمع، وإرساءِ مواضيعَ خائبةٍ فاشلةٍ، وتكريسِ سياسة النسيان.

ـ ٦ ـ

أُخفِقُ دائمًا في التجانس ودرجاته التعسُّفية. نَفَسي ينقطع وأنا أكتب عن شخصيّات (تبدو) نسائية، تتحرّك بكعوب مرتفعة وتنانيرَ واسعة وفروجٍ تَظْهر أحيانًا وكأنْ لا جدوى منها.

لم أبذل جهدي لكي يَظْهر مصعب، أحدُ شخصيّات **الولع** ـ وهو يتحوّل إلى طاغية ـ ينقّب بين أجساد نسائه الثلاث عن النموذج الأفضل. إنّهن اللائي انتهكن حرمةَ حزنه وسأمه، لكنّه كان ساخرًا من طراز ممتاز. بل هو سخر مني، أنا الكاتبةَ، في أحد الأيام. وقتَها، اشتدّ حنقي من نُزهات الخيانة التي يُرمى بها الرجل، مصعب بالذات. لم يكن يعنيني تقديمُ موقف نقديّ ضديّ

لهذا المخلوق، ولا كنتُ معنيّةً أيضًا بتسجيل إحصاءات الولادات والزواجات والطلاقات: فكلُّ ذلك الإرث كان يعاني درجةً فظيعةً من الفساد والانحطاط. فلا أنا مُصْلحة اجتماعية، ولا كان همّي الإشادة بنشاط الفتح الجنسيّ السخيف لمصعب. كنتُ في الدرجة الأولى أحاول التشكيك في وجدانات النساء، أن لا يستعرضن القلقَ على مستقبلهنّ (بالمعنى النفعيّ) إزاء الرجل/الزوج/البطل وهنّ في سنّ الورطة والآمال الخائبة والأوهام الباطلة: وأن لا يطالِبْن بدفع مستحقّات عن انخفاض معنى وقيمة الألم الممضّ الذي أصابهنّ. فالمرأة معرَّضة للخيانة مثلها مثل الرجل، وتخدع كما يخدع الرجل؛ ويخيَّل إليّ أنّ مَكْرها أقلّ نزقًا وأشدّ صرامةً منه، لسبب وجيه وليس بسيطًا، هو أنّها أشدُّ كتمانًا منه فقط.

- ٧ -

يَنْبغي أن نخطو إلى داخلنا قبل أن نخطو إلى غيرنا. في عموم قصصي ورواياتي، كنتُ أحاول إبقاءَ الفعل الجنسيّ في مرتبةٍ غيرِ تجريدية، وليس على أحسن وجه. هذا الفعل ناقص دائمًا، وآثارُه تَخِز كالإبر. حتى لو كانت الشهوة هي الأشدّ إيذاءً وإقلاقًا، فهي تتطلّب اللوم (لا أدري لِمَ؟) وحتى لو كانت بين شركاء أصحّاء لا يعانون انخفاضَ القيمة في الذات والخيال والصحة الروحية. في العموم هناك فشلٌ ما يمزّق سرورَ البهجة، أنّى يَكْمن، عنده أو عندها. وبذلك المقدار نفسه تتم العناقاتُ والوداعاتُ والحسراتُ، لأنّ الشغف يقود إلى ذلك البرزخ: تبعيّة الموت.

كنت أعتني بعلاقات الشركاء والعشّاق والمُفْلسين الحيارى في شخوص روايات **حبّات النفتالين** و **الغلامة** و **الولع** طوال الساعات والأيام والأعوام، لكي أبقى عالقةً بضوع الكلمات، بهواء عذاب الأشخاص، بالأنا الفضولية التي تراقب وتخشى الانحياز، بالآخر الذي تستَّرتْ به المؤلِّفة لكي تَضْبط إيقاعَ السرد على حركات التكرار، تكرارِ الجنس والغرام، تكرارِ اللعب والنشيج واللامبالاة وأكثر الأحيان فجور الشباب المتواطئ مع الكاتبة وهي تنزل إلى سنّها المتقدّمة كما تنزل الجثّةُ إلى حفرتها الفاغرة. لم أقرأ في أدبنا العربيّ فجورًا فنيّاً راقيًا يُقْصي شراكةَ الخير والشرّ ويَدَعُ الشبيبةَ النشوانة الهائمة في بؤرة المعارضة الحقيقية.

إنّني سليلةُ ذلك الرائي العظيم، كلكامش، الذي لم يُدْرك الاختلالَ أو الاختلافَ الجنسيَّ وهو يختار النومَ مع محبوبته عشتار، فيصيبه القصاصُ الإلهيّ ويُقْصيه عن مقام الآلهة، فتَنْفذ فيه رجولةٌ وحكمةُ البحث عن خلود النموذج.

اليوم، أفرادُ عائلتي لا يعترضون على سجلّ أنوثتي بعدما وقَعْتُ في شرّ أعمالي وصرت حرّةً في أن أفرِّط في أناي. فماذا يعني ان أحبَّتْ ثلاثُ نساء رجلاً واحداً؟ كان مصعب يهزأ من نفسه قبل الهزء منهنّ بطنينه العذب، فجمعْتُهنّ في سلوك الضيافة على صدره العريض وبطنِه الأملسِ وأنا أحاول أن أدعهنّ يستنشقن هواءَ تعدّد المباهج والآلام، ولم أنزل بهنّ إلى عنفِ تعدّد الزوجات وتفاهتِه.

لقد حاولتُ فقط أن أعرف، أن أَفْهم ذلك الداخل، داخلي بالدرجة الأولى. فأنا أرى الكتابةَ ذهابًا من غير رجعة. فلا مصعب كان حرّاً في اختياراته لحشد النساء ذاك، ولا النساءُ كنّ نادماتٍ على الذهاب إلى سريره وغرامه. ولا أَدْري، حتى الساعة، كيف يختلف عنهنّ أو بماذا يشترك معهنّ؟

باريس

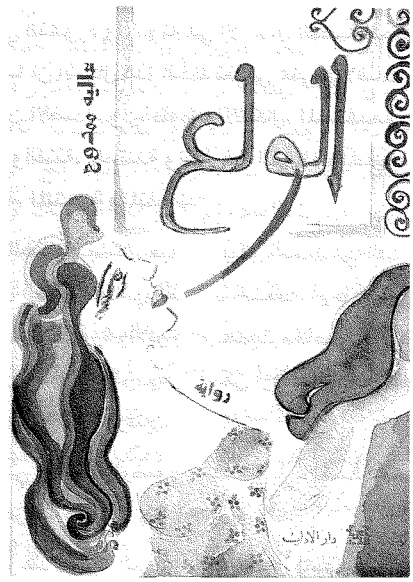

عالية ممدوح

روائية عراقية. تعيش في باريس. من رواياتها **هوامش إلى السيدة ب**، **الولع**، **حبّات النفتالين**